الإخلاص

حقيقةُ الإخلاصِ التبرِّي عن كلِّ ما دونَ الله ﷻ.

وأنت حين تخلص القصد لله إنَّما تُخلِّص عملك عن كلِّ ما يشوبه من شركٍ أو رياء.. ومهما عظم العمل في أعين الناس لا يمكنُ أن يُقْبلَ عند الله إلا بالإخلاص له. ولا يُحبطُ العملَ إلا شركٌ يدخل فيه أو رياءٌ يتعلق به ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١)

وأصْلُ الحَبْطِ من الحَبَطَ: وهو أن تُكْثِرَ الدابةُ أكلاً حتى ينتفخ بطنها، فلا هي انتفعت ولا هي سلمت. وكذلك كلُّ عمل لا يرجو فاعلُه لقاء ربِّه ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (٢)، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (٣)، ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الزمر : ٦٥.

(٢) الكهف : من الآية ١١٠.

(٣) البينة : من الآية ٥.

(٤) الزمر : ١١ - ١٤.

وعندما نتأمل حقيقة الإخلاص في شخص رسول الله ﷺ نراه بيِّناً في حياته كلِّها. ففي كل عمل من أعماله برهانٌ عليه، وفي كل موقف من مواقفه لا نرى إلا ذكر الله وابتغاء مرضاته؛ يُخضع كل شئ لطاعة ربِّه، ويتوجه بكل عمل لله رب العالمين لا شريك له ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [1]

يعلمنا الرسول ﷺ أن الإخلاص لا بُدَّ أن يتحقق في الأعمال وأن يُرى في السلوك، فهو ليس بمعزل عن حركة الحياة المتجددة بل هو منها كالروح من الجسد، لا تتحقق حياة إلاَّ به، ولا ينال أجرٌ ولا يُتقبل عمل ولا تتحقق نجاةٌ ولا يرتفع شأن إلا بالإخلاص لله وحده لا شريك له.

وفي حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قول الرَسُول ﷺ: « إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي. قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحًا إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً » [2]

أخي القارئ: كم من أناس حبسهم العذر عن تحقيق نياتهم الطيبة فنالهم الأجر. **عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمْ الْمَرَضُ »** [3]

وفي رواية أخرى لمسلم: « إِلاَّ شَرَكُوكُمْ فِي الأَجْرِ »

---

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

وروى البخاري عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: « إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلا وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ. حَبَسَهُمْ الْعُـذْرُ » [1]

❁❁❁

وتلك ثمرة الإخلاص وهذه نتيجته..

عن عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا لِلَّه صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا؛ لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ [2] عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ. فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ.

وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّه، اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَفْتَحْ

(١) رواه البخاري.

(٢) أي يصيحون من الجوع.

الْخَاتَمَ. فَقُمْتُ عَنْهَا. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً.

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَظْلِمْنِي، وَأَعْطِنِي حَقِّي. فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا. فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَهْزَأْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا. فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ.. فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ »[1]

أيها القارئ الكريم:

أود أن تلحظ معي الحالة النفسية لهؤلاء النفر الذين أواهم المبيتُ إلى غارٍ وانحدرت صخرةٌ من جبلٍ فَسَدَّتْ عليهم الغار. إنها حالةُ مكروب يلتمس المخرج، ويتحسس مواطنَ النجاة، ويبحث - في نفسه وفيمن حوله- عن سبب من الأسباب يرفع غُمَّتَهُ ويفرِّجُ كُربَته، فلم يجدوا جميعاً إلا باباً واحداً، هو بابُ العمل الذي قُصِدَ به وجهُ الله ﷻ.

والرسول ﷺ وهو الصادق الأمين عندما يذكر لنا شأن هؤلاء إنما يقصد فيما يقصد أن يُرِيَنَا ثمرة الإخلاص ونتيجته في حياة الناس وأحوالهم. وإذا كان هذا البيان النبوي حديثاً عن أناسٍ أخلصوا في مواقف معينة في الرخاء، ونالوا ثمرة ذلك في الشدة، فإنه يرتكن إلى قاعدةٍ أصيلة تتحقق في صور عملية من حياة الناس وأحوالهم ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ ﴾[2]

(١) متفق عليه، وهذه رواية البخاري.

(٢) الطلاق : من الآية ٢.

قَدِّم الشرط تجد الجزاء. قَدِّم التقوى تجد المخرج من الضيق والتفريج من الكُربة، ورسولنا ﷺ - وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن** - هو القدوة في ذلك كلِّه. لأنه لم يكن في جميع أحواله إلاَّ عبداً لله يدعوه ويدعو إلى سبيله. ويمكنك أنْ تراه وهو في الغار وصاحبُه يخشى أن تناله أيدي النفوس المتآمرة على قتله، فلا تسمع من الرسول ﷺ إلاَّ قولَ الواثق المطمئن بذكر ربه ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1].

أخي القارئ:

اجعل عملك خالصاً لوجه الله وترقَّب النتائج. ومن أُولى النتائج وأسرعها سرور النفس - وطمأنينة القلب، وما تحققه الثقة في الله - الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء من اعتدال نفسي واثقٍ مطمئنٍ شاكر صابر، يتحقق به الخير للإنسان وهو يواجه ظروف الحياة المتباينة ولا يكون ذلك إلا للمؤمن.

عَنْ صُهَيْب ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [2]

نود أن نجلس بين يدي رسول الله ﷺ نستمع إلى إجابته وهو يُسأل من بعض صحابته - رضوان الله عليهم - ومن أسئلتهم تدرك مدى الحرص على مرضاة الله،

---

(١) التوبة : ٤٠.

(٢) رواه مسلم.

ومن إجابته ﷺ ترى كيف كان القرآنُ الكريمُ خُلُقاً له يَصْدرُ في كل أمره عن هذا الأصل الجامع لأخلاقه ﷺ.

وإذا كنا من قبل قد لمسنا ما يحققه الإخلاص في حياة الناس من نتائج، فلن يَصْعُبَ علينا أن نعرف ما يكون عليه حال الناس وقد غاب الإخلاص عن حياتهم وانتفى من أعمالهم.

خَرَّج النَّسَائي من حديث أبي أُمامة ﷺ قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: لا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلاثَ مَرَّات، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: لا شَيْءَ لَهُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ »[1]

وخرَّج أبـــو داود من حديث عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: « قلت يَا رَسُولَ اللَّه، أَخْبِرْنِي عَنْ الْجِهَادِ وَالْغَزْوِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرٍو إِنْ قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا بَعَثَكَ اللَّهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا بَعَثَكَ اللَّهُ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا. يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرٍو، عَلَى أَيِّ حَالٍ قَاتَلْتَ أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ »[2]

وخرَّج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقـــول: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه أبو داود.

فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ » [1]

وفي الحديث أن معاويةَ لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله، قال الله ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [2]

أخي القارئ:

احذر أن يكون عملك لغير الله، وصحِّح النية دائماً؛ حتى تجعل حَظَّ نفسكِ في مرضاة ربِّك. يقول سهلُ بنُ عبد الله: « ليس على النفس شيءٌ أشقَّ من الإخلاص؛ لأنه ليس له فيها نصيب »، وقال يوسفُ بنُ الحسين الرازي: « أعَز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر ».

عاون نفسك، واستعن بربك في تصحيح نيتك، وسلْها - دائماً - لماذا أفعلُ هذا ؟ ولماذا أتركه ؟ فإن كان لله فامض، وراقب النفس مستعيناً بذكر الله؛ حتى لا يدخل الشيطان من باب الطاعة، فتذكرَ عَمَلَكَ وتنسى فضلَ ربِّك، وتَعَلَّم من نبيك

(١) رواه مسلم.

(٢) هود : ١٥، ١٦.

ماذا كان يقول وهو يؤدي أجلَّ الأعمال وأعظمها. كان يرتجز في حفر الخندق - وهو ينقل التراب - برجزِ عبد الله:

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا

فأَنْزِلَــنْ سكينــةً علينــا وثبت الأقدام إن لاقينا

إنه لا يُحب أن يَنْسِبَ عملاً صالحاً إلى نفسه، وإنما ينسبه إلى فضل ربه. هذا خلق القرآن يتخلق به رسول الله ﷺ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (١)

القرآن يربِّي المؤمنين دائماً أن ينسبوا الفضلَ لِلّه ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ (٢)

بهذا السلوك النقي تجد العون من الله على تطهير قلبك من هواجس الشرك ولوثه الرِّياء ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٣)

قف من نفسك دائماً موقفَ المؤدِّب المصحِّح لإرادتها، واحذر أن تباهِيَ الناس بعمل أو تمارِيَ الفقهاء بعلم، أو تجادل إلاَّ بالَّتي هي أحسن.

وابتغ بعلمك وعملك وجه ربك. **قال ابن مسعود** رضي الله عنه: « **لا تعلَّموا العلم لثلاث: لتُمارُوا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لِتَصْرِفُوا وجوهَ الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذهب ما سواه** »

---

(١) الأعراف : من الآية ٤٣.

(٢) الأنفال : من الآية ١٧.

(٣) التغابن : من الآية ١١.

اعمل العمل لوجه ربك فإن وجدتَ ثناءً من الناس عليك فاحمد الله، وانشد - دائماً - رضى الله دون أن تغتر بمدحٍ أو ثناء. **عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: « أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ. قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ »** (١)

أخي المسلم:

ابدأ دائماً بنفسك، أدبها بأدب الله، وعلّمها القرآن وعودها على التمسك به؛ حتى تتخلق بخُلق رسول الله، « ومعلّمُ نفسِه ومؤدبُها أحقُّ بالاحترام من مُعلّم الناس ومؤدبهم »

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (٢)

الإخلاص أصل ثابت لكل خُلق طيبٍ مُتقبلٍ عند الله مثمر في أحوال الناس، ولا أرى شيئاً يعظُم به الأجر ويعلو به الذكر مثلَ الأخلاق النابعة من معرفة الله وابتغاء مرضاته، التي من أجلها بُعِث الرسل جميعاً، وجاء خاتمهم ﷺ ليتمم مكارمها: « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »(٣)، وكما يدل ضوء الفجر الصادق على الشمس

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البقرة : من الآية ٢٨٦.

(٣) مسند الشهاب القضاعي، وفي رواية : « إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال » الطبراني في المعجم الأوسط، وقال : لم يرو هذا الحديث عن يوسف بن محمد إلا عمر بن إبراهيم، تفرد به : صالح بن بشر.

- وإن اختفت وراء الحجب - تدل الأخلاقُ على شأن صاحبها وإن حجبته عن الأعين أبعادُ الزمان أو المكان.

وقد استدل هرقل على صدق الرسالة المحمدية، استدل عليها بما سمع عن أخلاق صاحبها ﷺ ولم يره.

روي البخاري عن عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أن أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِه، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ

ثُمَّ قَالَ: لِتَرْجُمَانِه: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. يقول أبو سفيان: **فَوَاللَّه، لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ.**

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ - قَطُّ - قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِه مِنْ مَلِكٍ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِه بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيه ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ: لا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، لا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ.. وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.. وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا.. وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ »[1]

إنها أخلاق الرسول ﷺ يمتد تأثيرها في الناس ويكون لصاحبها شأنٌ أيُّ شأن

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[2]

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ »[3]

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: « لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ

(١) رواه البخاري.

(٢) القلم : ٤.

(٣) رواه مسلم.

أَخْلاقًا » [1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: « سُئِلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّه وَحُسْنُ الْخُلُقِ. وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ » [2]

أخي القارئ:

هل عرفت ميزان البر والإثم ؟ « **البرُّ حُسْنُ الخُلق** » ولكن ما البِرُّ حتى يتضح ميزانُ الخُلُقِ أمام عينيك ؟

البِرُّ: يُراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة. **الباطنة**: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. **والظاهرة**: كإنفاق الأموال فيما يحبه الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار ولقاء العدو.

وقد يكون جوابُ الرسول ﷺ في حديث النَّواس: « **البرُّ حُسْنُ الخُلُق** » شاملاً لهذه الخصال كلها؛ لأن حُسن الخُلُق قد يُراد به التخلُّقُ بأخلاق الشريعة، والتأدبُ بآداب الله التي أدَّب بها عباده في كتابه، كما قال لرسوله ﷺ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [3]، وقالت عائشة – رضي الله عنها: « **كان ﷺ خُلُقه القرآن** » يعني أنه يتأدب بآدابه؛ فيعمل بأوامره، ويتجنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خُلقاً كالجبلة لا يفارقه، وهذا من أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها، وقد قيل: ((إن الدين كله خُلُق)) .

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) القلم : ٤.

إن التمسك بكتاب الله ﷻ والاقتداء بنبيه ﷺ هو الَّذي يُوصِّلُكُ إلى أفْضَلِ الأخلاق وأحسنها، والرَّسول ﷺ ضامن ببيتٍ في أعلا الجنَّة لمن حَسُنَ خلقُه. وأَحَبُّ الناس إليه ﷺ وأقربهم منه مجلساً يوم القيامة أحسنهُم أخلاقاً.

فلنمض بعد ذلك في مفردات الأخلاق بعد وقوفنا على الأمر الكلي، وإدراكنا لمفهوم الأخلاق وما يعنيـــه قول عائشة - رضي الله عنها -: « **كان خلقه ﷺ القرآن** » نأخذ الآية من القرآن نتأمل فيها، ثم نرى بيانها العملي من سلوك رسول الله أو قوله أو إقراره؛ لنَزِنَ أمورنا ونصحح واقعنا وندعُوَ الناس على بصيرة.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [1]

✿✿✿

(١) الإسراء : ٩.